الانتفاضات العربية بين الماضي والحاضر

جوزيف مسعد*

إنّ وصف ما يجري منذ عام في العالم العربي بأنّه «صحوة» عربية، لا ينم عن جهل بتاريخ القرن الماضي فحسب، بل يقدم حجة استشراقية بأنّ الشعب العربي المستكين، الذي لم يثر على الطغيان الذي أخضعه لعقود خلت، استيقظ أخيراً، وفجأة، من سبات عميق. لقد ثار العرب في جميع أنحاء العالم العربي ضد الاستبداد الاستعماري والمحلي، في كل عقد، منذ الحرب العالمية الأولى. لكن القوى الأوروبية الاستعمارية، ووريثها الأميركي، هي من كانت تعترض سبيلهم، وتضع العراقيل أمام كل خطوة قاموا بها، وبتحالف مقيت مع حكامهم المستبدين وأسرهم «الحاكمة» (وكان الغرب، في كثير من الحالات، هو من ينتقي الحكام المستبدين ويتوّجهم على العروش).

إذن فإنّ التحديات الشعبية الراهنة للديكتاتوريات العربية التي يرعاها الغرب ليست بدعة جديدة في التاريخ العربي الحديث. فقد شهدنا ثورات مماثلة ضد الاستعمار الأوروبي في المنطقة منذ حلوله في الجزائر في1830، وفي مصر في 1882. واتسمت الثورات في سوريا في العشرينيات ضد الحكم الفرنسي، وفي فلسطين، على وجه الخصوص، في فترة 1936 ـ 1939، ضد الاستعمار البريطاني والاستعمار الصهيوني الاستيطاني، بالضخامة، وفقاً للمعايير العالمية. والواقع أنّ الثورة الفلسطينية ألهمت آخرين في العالم المستعمَر، وظلّت مصدر إلهام للعرب، حتى نهاية القرن العشرين وما تلاه. وقد تواصلت المقاومة المناهضة للاستعمار بمعارضة الأنظمة العربية التي فرضها الاستعمار في كلٍّ من الأردن ومصر والبحرين والعراق وشمال وجنوب اليمن، وفي سلطنة عُمان والمغرب والسودان. أما الثورة الجزائرية المجيدة، فقد انتصرت وحققت الاستقلال في 1962، حين دحرت الاستعمار الاستيطاني الفرنسي. وبذلك سقطت إحدى المستعمرتين الاستيطانيتين الأوروبيتين في العالم العربي، فيما بقيت الثانية، في فلسطين. أما على الجبهة الاستعمارية التقليدية، فقد بقي معظم الخليج العربي محتلاً من قبل البريطانيين، بانتظار التحرير في الستينيات وأوائل السبعينيات.

بعد حرب 1967

في خضم النظرة السوداوية التي هيمنت على العالم العربي بعد هزيمة 1967، كان التحدّي الذي شكلته المقاومة الفلسطينية والفدائيون لقوة إسرائيل الاستعمارية الذي تمثّل في معركة الكرامة في آذار/مارس 1968 (على الرغم من مبالغات عرفات العديدة في سرده لمآثره في المعركة)، قد أحيا الأمل في نفوس عشرات الملايين من العرب، وأعاد كذلك القلق للديكتاتوريات العربية النيوكولونيالية. وقد مثلت الثورة الفلسطينية مصدر إلهام للعديد من الشعوب، لكنّها لم تكن منبتة الصلة عن جهود ثورية أخرى في أنحاء عديدة من العالم الثالث عموماً، وفي الدول العربية على وجه الخصوص، وتلك بدورها قدمت الإلهام للفلسطينيين أيضاً.

وقد جاءت أولى بشائر انتصار الثورة ضد الاستعمار في العالم العربي، بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967، من شبه الجزيرة العربية. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، ألحق ثوار اليمن الجنوبي بالبريطانيين هزيمة نكراء وحرروا بلادهم من نير الاستعمار البريطاني الذي حكم عدن منذ 1838. وعلى اثر ذلك التحرر، أقام اليمنيون جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، التي استمرت مدة 22 عاماً، قبل أن تطاح ويجري حلّها في نهاية المطاف على يد الجمهورية العربية اليمنية في الشمال وحلفائها السعوديين.

وفي عُمان المجاورة، دخل الصراع المستعر لتحرير البلاد مرحلة جديدة تحت قيادة «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي»، التي أُعلنت في أيلول/سبتمبر 1968، نتيجة اندماج عدد من الحركات الثورية العُمانية التي كانت ثائرة آنذاك على السلطان سعيد بن تيمور المدعوم من بريطانيا. وقد حررت «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي» أراضي إقليم ظفار، واتخذتها قاعدة لشن الهجمات لتحرير باقي البلاد. وكانت حركات التحرر الوطني في الواقع نشطة في جميع أنحاء الخليج، لا سيما في البحرين التي انخرطت في بوتقة النضال من أجل التحرر الوطني فيها حركات عمالية ونسائية وطلابية، موحدين جميعاً ضد الحكم الاستعماري البريطاني وخدمهم المحليين.

القمع

أصر تحالف الولايات المتحدة وبريطانيا والسعودية وإسرائيل على سحق كلّ الجماعات الثورية التي كان بالإمكان هزيمتها، وعلى احتواء تلك التي لم يتمكن من سحقها. واستُهلت الحملة القمعية بمنطقة الخليج. وقد واصلت البحرين، التي كانت مسرحاً للنشاطات العمالية المناهضة للاستعمار لعقود، نضالها ضد الهيمنة البريطانية والعائلة الحاكمة المتحالفة مع الاستعمار البريطاني. وقد اضطرت بريطانيا، بعد انسحابها من اليمن الجنوبي، ونتيجة التهديد المستمر الذي كان يتعرض له وكيلها في عُمان، إلى نقل قيادتها العسكرية إلى البحرين، وهي الخطوة التي تبعها تدفق استثمارات ضخمة لرؤوس الأموال البريطانية على البلاد (وهو ما كان عليه الحال أيضاً في دبي). وقد جلبت تلك التطورات، كما كان متوقعاً، قمعاً أكبر ضد الشعب البحريني وحركة تحرره الوطني.

وفي هذا السياق، في الواقع، أعلن شاه إيران مطالبته بأرض البحرين، وهدد بضمها إلى إيران بوصفها «المحافظة الرابعة عشرة.» ولم تُكبح طموحاته الإقليمية إلا بعدما ضمن له حلفاؤه الغربيون والأمم المتحدة في 1970 حق إيران بالدخول باستثمارات ضخمة وبرؤوس أموال إيرانية في الدول العربية الصغيرة قيد الإنشاء في الخليج، بما في ذلك دولة الإمارات العربية المتحدة، مما أدى إلى تخلي الشاه عن مطالبته بالبحرين. وقد عبرت الدول الغربية عن امتنانها لشهامة الشاه وكرمه، بمكافأته على الصعيدين الدبلوماسي والسياسي.

أما على الجبهة الأردنية، فقد رد جيش الملك حسين في أيلول/سبتمبر1970 على انتصارات الثوار الفلسطينيين بشن هجوم شامل على قواعدهم في الأردن، ملحقاً الهزيمة بهم. وقام بطردهم من البلاد بالكامل في تموز/يوليو 1971، مقوضاً بذلك أيضاً الحركات اليسارية الأردنية المناهضة للحكم الديكتاتوري في البلاد. لكن على الرغم من ذلك، فقد واصلت منظمة التحرير الفلسطينية العمل ضد إسرائيل والديكتاتوريات العربية من قاعدتها القوية في لبنان.

أما في السودان، فقد واصل الحزب الشيوعي تعزيز حضوره في أواخر الستينيات، وحتى انقلاب جعفر النميري في 1969، الذي لم يتمكن في البدء من تهميش الشيوعيين بالكامل، إذ انتظر للقيام بذلك حتى تثبتت دعائم نظامه في 1971، مقتنصاً فرصة فشل محاولة انقلاب ضد حكمه الاستبدادي، إذ شن حملة اعتقالات واسعة شملت آلاف الشيوعيين وقام بإعدام جميع قادة الحزب الأساسيين، مدمراً بذلك أكبر حزب شيوعي في العالم العربي. واستمرت ديكتاتورية النميري حتى 1985. وبعدما فشل النضال الديموقراطي ضده، أدى ذلك إلى استيلاء مرشح المملكة السعودية عمر البشير على السلطة في 1989 سائراً على خطى النميري.

بائع أعلام في ميدان التحرير في القاهرة (رويترز)

و لم يتبق مع أوائل السبعينيات من هذا الزخم الثوري سوى «الجبهة الشعبية لتحرير عُمان والخليج العربي» التي استمرت بالتقدم. وقد بذل تحالف الولايات المتحدة وبريطانيا والسعودية وإسرائيل جهداً هائلاً لهزيمتها. وتم لهم ذلك من خلال التعاقد مع شاه إيران والعاهل الأردني للقيام بالمهمة. إذ قام الديكتاتوران بإرسال وحدات عسكرية تابعة لجيشيهما، مدعّمة بمستشارين عسكريين بريطانيين، إلى سلطنة عُمان. وقد تمكنت تلك القوات في نهاية المطاف من سحق الثورة وإلحاق الهزيمة بها، محافظين بذلك على عرش السلطان قابوس، الذي كان قد أطاح والده السلطان سعيد في 1970 بانقلاب قصر خطط له البريطانيون. ومع هزيمة الثوار العُمانيين في 1976، ظلت منظمة التحرير الفلسطينية الحركة الثورية الوحيدة التي نجت من هذه الهجمة الشرسة إلى جانب دولة اليمن الجنوبي الفقيرة والضعيفة، والتي ابتلعتها في النهاية اليمن الشمالي المدعومة سعودياً في 1990.

> الشعب الفلسطيني لن يحقق استقلاله ويهزم إسرائيل طالما بقيت السلطة الفلسطينية تقوده

الاحتواء

ولضمان أنّ الثورة الفلسطينية، التي هزمت جزئياً في الأردن لن تصوّب سلاحها ضد أي نظام عربي آخر، أخذت الأموال السعودية والخليجية بالتدفق على خزينة منظمة التحرير الفلسطينية. وقد تمكنت تلك التدفقات النقدية بالفعل من تحويل منظمة التحرير الفلسطينية إلى حركة تحرير «تقدمية» يتم تمويلها من قبل أكثر الأنظمة رجعية في العالم الثالث. وعلى وقع هذا التمويل الهائل الذي أخذ يتلقاه ياسر عرفات بُعيد حرب 1973 من كل الديكتاتوريات العربية المتخمة بالثروة النفطية، من القذافي إلى صدام حسين وصولاً إلى جميع ممالك وإمارات الخليج، بدأ القائد الفلسطيني السير في طريق أوسلو. وقد أدى تدجين منظمة التحرير الفلسطينية ذاك إلى اعتراف الأنظمة العربية بها في 1974، باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، كما كان السبب الرئيس لتأييدهم لها في الأمم المتحدة في العام ذاته. في واقع الأمر، وصل تحالف عرفات الرجعي مع الطغاة العرب حد تعاون بعض أجهزة استخبارات منظمة التحرير الفلسطينية معهم لتبادل المعلومات الاستخبارية عن معارضيهم، بما في ذلك قيام جهاز استخبارات «أبو الزعيم»، التابع للمنظمة، بتسليم المعارض السعودي ناصر سعيد في كانون الأول/ ديسمبر 1979 إلى الاستخبارات السعودية، بناءً على طلب من السفير السعودي في لبنان. واختفى سعيد من بعدها، ويرجح أنّ السلطات السعودية قامت بتصفيته. أما على الجبهة الدبلوماسية والتضامنية، فقد رفض عرفات الاعتراف باستقلال الصحراء الغربية الذي أعلنته في 1976 جبهة البوليساريو (المتضامنة مع الشعب الفلسطيني)، احتراماً منه لتحالفه مع الملك الحسن الثاني (المتعاون في حينها وحتى آخر يوم في حياته مع إسرائيل).

الانتفاضات الجديدة

بما أنّ الحركات الثورية الفلسطينية هي الوحيدة التي بقيت، في نظر الولايات المتحدة والقوى الكولونيالية الأخرى، غير مدجنة بالكامل، على الرغم من أنّها كانت، من وجهة نظر الأنظمة العربية، قد دُجنت بما يكفي، فقد جاء التحدي الجديد في 1987 من جانب الشعب الفلسطيني نفسه الذي انتفض في وجه محتليه الإسرائيليين. وإذ كانت انتفاضته تلك هي ثاني أكبر انتفاضة فلسطينية في نصف قرن (ينظر إليها الكثيرون الآن على أنّها ملهمة الانتفاضات الحالية في العالم العربي)، فكان لا بد من سحقها. وبذل الإسرائيليون قصارى جهدهم لهزيمتها، لكن جهودهم باءت بالفشل. وسرعان ما قامت منظمة التحرير الفلسطينية بالاستيلاء على قيادة وسير الانتفاضة خشية أن تبرز قيادة فلسطينية جديدة تحل محل سلطة المنظمة في تمثيل الفلسطينيين. ومع استيلاء منظمة التحرير على الانتفاضة، بدأت جهود الإسرائيليين والأميركيين تتحوّل باتجاه احتواء منظمة التحرير، وتحييد قدرتها على إفساد السياسة الأميركية والإسرائيلية في المنطقة. وقد جاء في هذا السياق التوقيع على اتفاق أوسلو في 1993، الذي حوّل منظمة التحرير الفلسطينية بالكامل من قوة تهدد الديكتاتوريات العربية وراعيتهم الإمبراطورية الأميركية والاحتلال الإسرائيلي، إلى عميل لكل منهم، تحت مسمى «السلطة الفلسطينية»، التي ستصبح عوناً للاحتلال الإسرائيلي بتحالف بغيض مع طغاة الخليج والولايات المتحدة. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، سوف تصوب بنادق منظمة

الأخبار
تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2007–2006)

مستشار مجلس التحرير
انسي الحاج

■ رئيس التحرير إبراهيم الأمين ■ مديرا التحرير إيلي شلهوب، بيار أبي صعب
■ سكرتير التحرير وفيق قانصوه ■ العالم بشير البكر ■ اقتصاد محمد زبيب
■ وحدة الأبحاث عمر نشابة
■ المدير الفني إميل منعم

■ رئيس مجلس الادارة والمدير المسؤول ابراهيم الأمين
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963
■ www.al-akhbar.com

■ الاعلانات Tree Ad / 611115 / 01 ـ 252224 / 03
■ التوزيع شركة الاوائل 15ـ 666314 / 01 ـ 828381 / 03